شخصية العدد: ميشيل لوبرو

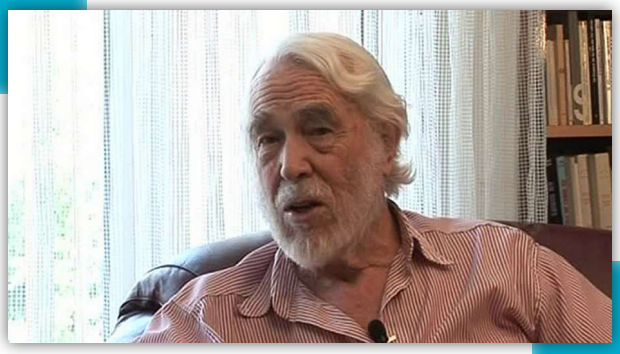

أنا بيداغوجي

ترجمة: يوسف العماري

إني أُثبِت بحياتي نفسها أن ميلَ البيداغوجي يبنى طيلة حياة كاملة.
هل توجد ميول إلى البيداغوجي في الطفولة؟
ربما. أما أنا، فلم أكن كذلك.

في سن العشرين، كان لدي بالأحرى ميلُ الفيلسوف، وقد أثبتُّه حين صرتُ سنوات بعد ذلك أستاذا للفلسفة واجتزت التبريز في الفلسفة، الشيء الذي يسَّرني دفعة واحدة لمسار مهني نُذر لأن يكون متألقا. بيد أنني خلال تدريس الفلسفة اكتشفتُ البيداغوجيا. لقد أثار التلاميذ اهتمامي وصرتُ لهم صديقا بقدر ما كنت أستاذا. كنت أدعوهم إلى بيتي، وصار بعضهم فعلا أصدقاء. فبالتجربة، بالمعيش، وُلد لدي ميلُ البيداغوجي.

ذات يوم أدركتُ أني بلغت الكفاية من تدريس الفلسفة، المجردة كثيرا والنظرية كثيرا، فذهبت إلى وزارة التربية الوطنية في باريس طالبا تعييني في مدرسة لتكوين المعلمين. عُيِّنتُ في منطقة شمال فرنسا، حيث درّستُ البيداغوجيا لأبناء عمال مناجم بادكالي مدة عامين... استمتعتُ بذلك. إن الميل تولّد بفضل ممارسة هامة. وأنا لا أنظر سيرورة الميل هذه إلا الآن، بعد خمسين سنة. إن الميل يولد من المعيش.

في أراس، انكببت على القيام بالبحث البيداغوجي مع تلاميذي. ذهبت إلى الأقسام. اكتشفت الملاحظة. البيداغوجيا، هي أيضا، تُبنى.

لم أنجح في العودة إلى باريس إلا خلال الستينات بعد سنوات خارجها. ظفرتُ بالتعيين، عام 1958، في معهد لتكوين مدرسي الأطفال غير المتأقلمين (...). تجربة جديدة، تجربة الأطفال المتخلفين عقليا، غير المتأقلمين مدرسيا، ذوي عسر القراءة، ذوي المزاج المضطرب... وأخيرا أصبح بالإمكان ممارسة بيداغوجيات الصدمة، بيداغوجيات قادرة على زعزعة كيانات منتصبة ضد النظام المدرسي. كتبتُ كتبا كثيرة في هذا الموضوع وقررتُ، على وجه الخصوص، بمعية أصدقائي –جورج لاباساد، رُني لوغو، ريمون فونفيياي-ابتداع بيداغوجيا جديدة ينطلق فيها كل شيء من التلميذ، من رغباته وطلباته. إن الفكرة التي مفادها أن التحفيز هو الأمر الأول والشرط لكل تحصيل حرَّكتنا جميعا. هكذا وُلدَت «البيداغوجيا المؤسساتية».

لماذا «مؤسساتية»؟ تكمن علة هذا اللفظ العجيب في أن بعضا منا اعتقدوا خطأ أن كل شيء يَمُر عبر المؤسسات بينما اعتقد آخرون، مثلي، أن الواجب بأي حال تغيير تلك المؤسسات. سيتجه الأولون لاحقا نحو «التحليل المؤسساتي» أما أنا فسأبدع، سنوات من بعد، اللاتوجيهية التدخلية التي لا أزال أمارسها إلى اليوم.

كان تأسيس جامعة فانسين إثر أحداث ماي 68 الحدث المؤثر الذي سيفتح حقبة بيداغوجية جديدة. بزغت منظورات بيداغوجية جديدة. تركتُ مركز بومون سورواز الذي أنكر التزاماته وحظيت بالانخراط في كلية فانسين، حيث مُنحتُ حرية بيداغوجية مطلقة. سيكون بمقدوري، أخيرا، تجريب هذه البيداغوجيا التي أبدعناها للتو. سوف أتمكن من تحديد بيداغوجيتي، البيداغوجيا اللاتوجيهية التدخلية، التي ما فتئتُ أمارسها. أحدثتُ «مجموعات التعبير الكلي» حيث يمكن التعبير عن الذات لفظيا وجسديا في الآن عينه، ومجموعات التعبير الكتابي، ومجموعات العلاج النفساني خارج الكلية. رَسَوْتُ كمعالج نفساني في إطار حر. كتبتُ كتبا عديدة.

كانت إحالتي على التعاقد عام 1987 حدثا مهما بالنسبة إلي. أخيرا أصبحتُ حرا تماما. سوف يكون بوسعي أيضا الذهاب إلى الخارج خاصة إلى المغرب. سوف أتمكن من الكتابة أكثر. بدأتْ هنا حقبةٌ جديدة في مساري البيداغوجي، حقبة النظرية والنظر. كنت قد نشرتُ كتبا متمركزة حول البيداغوجيا، مثلا: [*la Pédagogie institutionnelle* (1966), *À quoi sert l'école* (1992),][1] الخ. الآن، أتوجه صراحة شطرَ الأنثروبولوجيا وعلم النفس، وهما أُسًّا البيداغوجيا. في علم النفس، نشرت *Les forces profondes du moi* الذي يقدم تصورا جديدا للنفس، مخالفا للفرويدية. ثم عام 1999، أصدرت بالمغرب كتابا في الأنثربولوجيا الأساسية بعنوان *L'aventure humaine*.

كانَ تمكين البيداغوجيا من قواعد متينة المشكلةَ المركزية. كانت فكرتي أن البيداغوجيا الحقيقية تحترم رغبات الطفل. أقول «رغبة» لا «حاجة»، لأن الرغبة هي ما تريده الذات هنا والآن، ما تقصده فعلا، في حين أن الحاجة هي بناء من الخارج من طرف آخر. ينبغي العمل وفق ما يطلبه الطفل فعلا وعن وعي، بحافزيته الصريحة.

هذا يفترض تأسيسا متينا لنظرية الرغبة. وهو ما عزمت على القيام به خلال أعوام 2000. وقد تمخض ذلك عن *L'écoute du désir* الذي أعدتُ إصداره مرات عديدة في صور مختلفة. وبذلك، ثوَّرتُ البيداغوجيا. كان عليّ أن أتحمَّل الاعتراضات والممانعات التي أثارها ذلك. كان لابد من أن أبني ذاتي وأقويها، أنا أيضا. إني أشتغل كثيرا على ذاتي. كتبت كتبا سير-ذاتية بكاملها، كان آخرها *Ma vie, un kaléidoscope* (2011) حيث جرؤتُ على الانكشاف.

أخيرا، نأتي إلى حياتي الحالية. أنا الآن بصدد إنهاء كتاب أتناول فيه مسألة أساسية: التأثير. فالتأثير في الواقع هو الذي يصنع منا ما نحن إياه. إن التأثيرات التي تلقينا، هي ذواتنا-نحن.

هل أنا بيداغوجي فعلا؟ لكن، أي دابة عجيبة هذه! أعتقد أن أحدا ما يلتذ في التعاطف: التمركز حول الآخر. أقضي ساعات في الإصغاء إلى الناس. يجلب لي ذلك لذة عظيمة. حينما نشرع في فهم الناس قليلا، يمكن المبادرة إلى مساعدتهم. فلا يمكن أن تساعد أحدا غريبا عنك.

1 - انظر قراءة في هذا الكتاب قام بها المرحوم ذ. أحمد مرجاني ضمن هذا العدد.